ذنوب اللغة العربية

فى نظر بعض المتعلمين

بقلم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى المدرس بمدرسة عابدين للمعلمين

تعد ذنوبى عند قوم كثيرة ولا ذنب لى إلا العلا والفضائل

رأى فريق من المتعلمين فى هذه الأيام على أن يكيلوا التهم للغة العربية جزافا ، فأخذوا يرمونها بما ظنوا أنه عيب ونقص فيها. ومن السهل أن يتهم الانسان بما يشاء ، ولكن الصعب الذى لا يفهم أن يجعل هؤلاء مجرد الاتهام موجبا للادانة ، ومثبتا للمأمن غير أن تقوم على التهمة أدلة أخرى توجب ثبوتها وتأييدها .

من هذه التهم تهمة أن اللغة العربية كثيرة العلوم متشعبة المباحث ، وأن كثرة علومها دليل على تعقدها ، وصعوبة إدراكها وبرهان تأخرها . كما أن ذلك من دواعى التنفير منها والانصراف عنها ، وإهمالها لليأس من الاحاطة بها أو النبوغ فيها . هذه هى التهمة ، وذلك تعليلها فى رأيهم . وها نحن نعالج فى هذا المقال شرح هذه التهمة وما أوردوا لتأييدها من أدلة بقدر ما يسمح المقام شرحا يسمح للمنصفين — على اختلاف نزعاتهم ودرجاتهم فى العلم — أن يتبينوا مقدار نصيبها من الحق أو الباطل ، والصدق أو الكذب .

أما كثرة العلوم فنحن نسلم بها ولا ننكرها ، ونحث الاخصائيين فيها على الاستزادة منها والتوسع فيها بقدر ما تسمح لهم جهودهم وأوقاتهم ، لأن كثرة علوم اللغة تدل على اتساع نواحيها ، وبعد مراميها ، وتدل أيضا على أن قوة الحياة فى كل ناحية من نواحيها قد بلغت من جلالة القدر المكانة السامية التى تسترعى أنظار العلماء وتستوجب أن تعكف طائفة أو طوائف من كبار الأئمة على دراستها ، وإفناء الوقت الثمين والجهد الغالى والمال الكثير فى تفصيلها وتحقيق مباحثها . إذ من المسلم ، أن الشىء يسترعى الأنظار إليه ويدعو المفكرين إلى التفكير فيه بقدر ما أودع من معانى الجلال وما اشتمل عليه من أسرار العظمة ، وما يرجى من وراء البحث فيه من ضروب النفع ، وصنوف الفوائد .

وقد مرت اللغة العربية بعهد نالت فيه من عناية الخلفاء وكبار الدولة والعلماء والأدباء ما لم تنله لغة من لغات العالم قديما أو حديثا . فقد بذل هؤلاء جميعا فى سبيلها من المال والجهود والوقت مثل الذى يبذلونه من ذلك فى تحصين ملكهم ، وتأييد سلطانهم . ولم يكونوا

فى ذلك ضالين طريق الهدى أو عابثين أو هازلين بل إنهم كانوا يعلمون مايفعلون، ويدركون أن بعض الرسائل البليغة ، أو الخطب المؤثرة تصادف موقعها فى القلوب ، فتحدث مالا يحدثه السيف ، وتغنى عن الجيوش ، ويدركون بها النصر المرجو ، والفتح المبين

فهذه العناية من الخلفاء ، وذوى الجاه من رجال الدولة ومن العلماء والمفكرين من الأئمة الأعلام دليل على عظمة اللغة وغزارة مادتها ، وقوة الحياة والنمو فيها . بل لو استقصى الباحثون المتعمقون الدلائل لأثبات عظمة اللغة لما وجدوا دليلا أدل على العظمة والسعة والخصب والحياة من توافر جهود الخلفاء والعلماء الممتازين على خدمتها وما كلفهم ذلك من جهد ووقت ومال ، وبخاصة إذا كان هؤلاء جميعاً من حصافة الرأى والحكمة فى القول والعمل والحزم ، وحسن التقدير للأمور بالمنزلة التى لا يطمع كثير فى إدراكها ، ولا يجرؤ عاقل منصف أن يتهمهم فيها ، فكثرة العلوم دليل السعة والكمال وليست عيبا ولا نقصاً كما يقولون .

وأما أن كثرة هذه العلوم دليل التعقيد فى اللغة ومؤدية إلى صعوبة إدراكها وسبب فى التنفير منها ، والتزهيد فيها فقليل الرد على ذلك نقول :

إن طالبى اللغة ينقسمون إلى قسمين : القسم الأول طلاب يريدون أن يتعلموا اللغة لتكون وسيلة يعبرون بها عما يختالج ضميرهم من المعانى ، وما يعرض لهم فى الحياة من الشئون قولا وكتابة أو ليستعينوا بها مع ذلك على تغذية عقولهم ، وتوسيع دائرة معلوماتهم فيما هم بصدد دراسته من العلوم التى تعنيهم معرفتها ويريدون أن يخصصوا أنفسهم فيها . والقسم الثانى طلاب يريدون أن يتعلموا اللغة ليكون التوسع فى علومها غايتهم فهم بصدد التخصص فيها حتى يكونوا مراجع يرجع إليهم فى غوامض مسائلها التى يحتاج فيها إلى أمثالهم .

فأما طلاب القسم الأول — وهم الذين يطلبون اللغة وسيلة — فلا حاجة بهم إلى أن يحذقوا هذه العلوم الكثيرة ، ولا ضرورة تلجئهم إلى خوض غمراتها ، واحتمال مشاقها ومتاعبها . فقليل من تلك العلوم — مع كثرة الاطلاع والمحاكاة — يكفى هؤلاء وأمثالهم لأن يقيموا ألسنتهم ويقوموا أقلامهم ، ويحققوا غايتهم من الفهم والتفهيم والانتفاع .

وإنك لتجد الآن كثيراً من المتعلمين يحيدون التعبير عما يريدون قولا وكتابة ، ويستطيعون أن يفهموا ما يطلعون عليه فى الكتب العربية من الأمور والعلوم التى تعنيهم معرفتها ودراستها مع أنهم لم يكفلوا لأنفسهم استقصاء هذه العلوم الكثيرة بل اكتفوا بالقليل منها ، ولم يعقهم عدم التبحر فى هذه العلوم عن إدراك غايتهم من اللغة العربية ، ولم يؤاخذهم أحد باكتفائهم بالقليل الذى دعت إليه حاجتهم ، فإذا كانت اللغة لا تضطر هؤلاء وأمثالهم إلى توسع يكلفهم احتمال العناء الذى يتخيله هؤلاء المتهمون ، ولا تلزمهم خوض هذه الغمرات

التي يريد هؤلاء المدعون أن يقحموهم فيها - فلماذا لا يتم هؤلاء وأمثالهم بهذا التيسير الذي يحقق لهم كل رجاء ، ولا يكلفهم كثيرا من العناء .

وأما طلاب القسم الثاني — وهم الذين يطلبون اللغة غاية — فهؤلاء قد اختاروا لأنفسهم ما أحبوا ، وأقبلوا راضين على دراسة هذه العلوم الكثيرة المتشعبة المباحث بعد أن وطنوا العزم على بذل ما يملكون من جهد ووقت في فهم هذه العلوم ، وتحرير مسائلها حتى تتم لهم بهذه الدراسة ملكة صحيحة يقتدرون بها على فهم روح اللغة وإدراك مرامي أساليبها العويصة ، وتراكيبها الغامضة ليكونوا بعد ذلك مراجع يرجع إليهم في هذه الأمور الشريفة التي تتصل بالحياة القومية وترتبط بالدين وجميع علومه أيما اتصال وارتباط

فمن واجب هؤلاء المتخصصين أن يتوسعوا وأن يجددوا في مباحث اللغة التي تحقق معنى الحياة فيها ، وتزيدها سعة وبسطة ، بل عليهم أن يخصصوا كثيرا من جهودهم وعنايتهم بتلك النواحي التي هي مظنة الخصب الذي ترجى منه الثمرة الزاكية والغاية المرجوة .

إنهم لو أنفقوا في كل يوم بعض جديد ، أو بحث مفيد أو لو بلغت عنايتهم باللغة الحد الذي يستطيعون فيه أن يجعلوا من كل بحث علما مستقلا له أصوله وفروعه ومباحثه ، لكان ذلك مفخرة للغة وللقائمين بشئونها ، لأن التوسع في أي موضوع مهما كانت درجته من العظمة أو الخطة — والعناية ببحثه البحث المستفيض الذي يتناوله من أوجهه المختلفة — مما يدعو إلى كشف أسراره ، واستنباط ما عسى أن يكون مستكنا فيه من وجوه النفع أو الضر ليجتنى النفع ويجتنب الضر . فتوسع المتخصصين فيما تخصصوا فيه لا ثمرته المذكورة ، وغايته المحمودة ، ولا يجد أحد فضل التوسع في العلوم — أيما كان موضوعها — إلا أن يكون مكابرا ، أو جاهلا

ومن الذي عاب كثرة العلوم المتعلقة بالإنسان والبحث فيه من جهاته الكثيرة ؟ فمن علوم نفسية وأخلاقية واجتماعية إلى علوم طبية وقد تفرعت الطبية إلى فروعها الكثيرة المعروفة . فمن الذي ينكر على الأطباء أن يتوسع في كل عضو من الأعضاء طائفة منهم تخصص هذا العضو بالمباحث المستفيضة الواسعة حتى يكشفوا الناعن الأسرار الخفية التي يمكن أن تنتفع بمعرفتها في المحافظة على الصحة والعلاج من الأمراض ؟ لم يقل أحد إن كثرة العلوم الطبية دليل على انحطاط الإنسان الذي هو موضوعها ، وكذلك لم يقل أحد إن التوسع فيها من دلائل صعوبتها وتعقدها ، ومن موجبات التنفير منها والترهيد فيها ؛ ولم يقل أحد بوجوب تيسيرها حتى تصبح في متناول الجميع .

وليس الأمر قاصرا على الإنسان وما يتعلق به من العلوم بل ما يقال في الإنسان يمكن أن يقال في أحقر الحيوان كبعض الحشرات بل في الجماد وأنواع الأحجار .

نقول إذا كان هذا شأن التوسع فى كل شىء فلماذا هؤلاء يعكسون الآية ويعدون الكمال نقيصة ، والفضيلة رذيلة فأصبحوا يرون التوسع فى اللغة العربية نقصا وعيبا ؟

والذى نستطيع أن نستنبطه من قول هؤلاء أنهم ليسوا من الذين سخوا على اللغة بشىء كان من الوقت والجهد فأوصدت اللغة أمامهم أبوابها ؛ ولم تكشف لهم عن بعض مزاياها وأسرارها فهم من الذين ضنوا على اللغة فضنت عليهم بما يكنون ذخائرها ويمين كنوزها ؛ فلما استعصت عليهم أنتنها ولم تذل لهم عزتها ولم تبذل لهم مضمونها فهبوا يقولون إنها وبيتهم وانها ونسوا أن المطلب الخطير لا ينال بالجهد اليسير بل لا بد دون الشهد من إبر النحل .

فكروا أيها القوم قليلا واعلموا أنه إذا كان من العبث أن يحاول بعض الناس التوسع فى كل شىء مهما سمت مداركهم ، وكلت عقولهم فمن العبث كذلك أن ينادى بعض مدعى الاصلاح بوجوب تذليل مباحث اللغة والقصد فيها حتى تصبح فى متناول الجميع بلا فرق بين متخصص وغيره . فالعدل كل العدل فى أن تتوسع كل طائفة فيما تخصصت فيه فبهذا تزدهر الجهود وتتكاثف القوى فتجنى الأمة والانسانية من وراء ذلك ثمارا غزيرا ، وخيرا كثيرا ولا عار على من يتخصص فى شىء ألا يتوسع فى باقى الأشياء كما أن من التجنى أن يتهم المرء بما لم يتخصص فيه بالعجز والتعقيد لانه لم تقيد له شوارده ، ولم تذل له نوافره .

فيا أيها الصاحون إن كنتم تريدون اللغة وسيلة فقد كفاكم القليل من علومها فعليكم أن تعترفوا بهذه المكرمة وأن تشكروا اللغة على تلك النعمة نعمة السهولة والرخاء ولا شأن لكم بمن يريدون أن يتعمقوا فى سبيل اللغة المتاعب ويتجرعوا مرارها ويستقصوا أو صابرا وإن كنتم ممن يريدون اللغة غاية فليس لكم أن تشكروا من ضرورة لابد منها لكل من يريد التوسع فى أى علم من العلوم كالطب والهندسة وعلم الحشرات وعلم الأحجار .

فاذا كنتم لا تستطيعون ذلك فقد ظهر عجزكم وضعفكم عن الاضطلاع بما تحاولون أن تضطلعوا به فأول لكم أن تنصرفوا عما لا تحسنون إلى ما تحسنون عملا بقول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

ولعلكم بعد هذا البيان تؤمنون معنا بأن كثرة علوم اللغة العربية ليست رذيلة ولا عيبا ولا تعقيدا فيها بل هى فضيلة لها ومكرمة ، هى شرف لها ورفعة . هى علو مكانة لها وسمو منزلة ، هى دليل العناية الفائقة والرعاية الكاملة ، هى مظهر الخصب المثمر ومصدر الريع النافع هى دليل جدارتها بالتصرف الحسن ، وبرهان استعدادها الفرق بل هى دليل مطاوعتها وانقيادها لمن يريد توجيهها إلى نواحى الحياة المتشعبة التى يطلب إن كل لغة حية واسعة أن تتجه إليها

(البحث بقية)

عبد الفتاح الصعيدى

المدرس بمدرسة قليوبى الثانوية